

ما فعلت الأيام

للأستاذ أحمد أمين

أعز شيء عليه في الوجود دينه ، حياته كلها دين ، ومشله الأعلى رجل ظهرته دين ، وبطائنه دين ، تفتير عينيه في خشوع دليل على أنه قضى شطر ليله في عبادة ومناجاة ، أسبل عليه الدين نوعاً لطيفاً من الرضى بالقضاء والقدر ، فلا يأسى على فائت ، ولا يجزع على ميت ، ولا يستخفه الفرح بخير ، ولا يغلو في الحزن على شر ، راض بما كان وما يكون ، فكل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس ، كل أحكامه صادرة عن دين ، فالرجل الطيب من تدين ، ورجل السوء من لم يتدين ، ويستحيل على رجل أن يكون طيباً إذا شرب كأساً من خمر ، أو لعب لعبة ميسر ، أو ترك صلاة أو زكاة — يوفق دائماً بين أعماله في الحياة وأوامر الدين ، إذا أراد الرياضة ذهب الى سيدي بشر لزيارته ، أو لسيدي جابر لصلاة الجمعة فيه ، أو أخذ جزءاً من « الاحياء » وذهب الى « طابية قايتباي » يخلو فيها بنفسه ودينه وكتاب الاحياء . وإن أراد أن يحفظ شيئاً من الأدب حفظ في نهج البلاغة لأنه يجمع بين البلاغة والدين ، وإن عرضت فرصة في دراسته للغة العربية خرج من اللغة الى الدين ، وانقلب واعظاً لتلاميذه ، حتى استطاع أن يكون منهم فرقة دينية تلتزم الصلاة والصوم وشعائر الدين .

عرفته اتفاقاً ، ولست أدري الآن سبب المعرفة وكيف كانت ، وكل ما أذكره أنني عرفته ، وفي لحظة تحولت المعرفة الى صداقة خب ، فكان من خاصة إخواني وأقربهم مودة الى قلبي ، يأنس بي وآنس به ، ويفضي إليّ بدخيلة نفسه وكامن أسرار ، وكان حبي له مشوباً بعطف عليه ورحمة له ، عطفني عليه ظرف فيه ، وأرافني به رقة حواشيه ، وملاً نفسي رحمة عليه قسوته على نفسه وأخذه لها في كل شيء بالأشد الأحزم ، قد ملك الدين عليه نفسه ، فروعه من كل نعيم خشية السؤال ، وهول عليه كل لذة خوف العقاب ، وغلبت عليه في كل تصرف فكرة الموت مخافة ما بعده ، إن قال له قائل « ولا تنس نصيبك من الدنيا » قال « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

على كل حال نعمنا بالصداقة حيناً تساهمنا فيه الوفاء ، وتقاسمنا الصفاء ، أسافر الى الاسكندرية فأرى أول واجب عليّ أن أزوره ، ويحضر الى القاهرة فيرى أول واجب عليه أن يزورني ، وأكتب

عرفته بالاسكندرية منذ عشرين عاماً ، شاباً رقيق البدن ، ضئيل الجسم ، مسنون الوجه ، شاحب اللون ، أظهر مميزاته الرقة والتواضع والتدين . حيي الطبع ، شديد الحجل ، إن جلس في قوم اعتقل لسانه ، وأطرق رأسه وأرخى عينيه ؛ وإن صدرت منه هفوة أو شيء ظنه هفوة ، تمنى لو ساخت به الأرض ، وظل يحاسب نفسه ويطيّل تأنيبها ، فأثر الانفراد وأخذ الى الوحدة ، واستأنس بالوحشة ، فقلّت معرفته بالناس ، وقلّت معرفة الناس به ، لا يعرف من العالم إلا مدرسته التي يدرس فيها ، وبيته الذي يأوي اليه ، ومسجده الذي يتعبد فيه ؛ فأما الحياة وشؤونها ، وجدها وهزلها ، وملاهيها وألعيها ، فلا يدري منها شيئاً . لا يجلس في مقهى لأنه يخلُ بمروءته ، ولا يذهب الى تمثيل أو سينما لأنهما لا يخلوان من امرأة سافرة ، ولا يشتري شيئاً من بقال عنده لحم خنزير خوفاً من أن تكون سكينته التي يقطع بها الجبن والحلوى قد مست الخنزير ، فلا يطهرها مسح ، إنما يطهرها غسل سبع مرات إحداهن بالتراب ؛ ويغض طرفه اذا سار حذر أن تقع عينه على امرأة .

إن رسالة الفقيد الكريم كانت ضرورة من ضرورات الإصلاح في عصر قضى الله أن يبعث فيه مجد العرب ليحييا من حي عن بينة ، فان نهوض الأمة على تاريخ طامس ، وأثر دارس ، ولغة معجمة ، وهيكل منحل ، يكون أشبه بنهوض الكسيح لا يقوم الا ليقع

وقد تلخص الفقيد رسالته أجمل تلخيص في ثلاثة أبيات من الشعر أنشأها ثم جعلها زخرف داره ، وصورة شعاره ، ومرجع حديثه . وهي :
وقفت على احياء قومي يراعتي وقلبي وهل إلا اليراعة والقلب
ولى كل يوم موقف ومقالة أنادى ليوث العرب ويحكموا هبوا
فأما حياة تبعث الشرق ناهضاً وإما فناء وهو ما يرقب الغرب
رحمه الله رحمة واسعة . وعوض العروبة والعزية والاسلام

أحمد الزيات

من فقدته خير عوض .

ومصدر حكمه على الأشياء ما يفعله الاوربيون وما لا يفعلون .
قد يعارض ما يراه من ضروب المدنية مبدأ من مبادئ دينه فيظهر
عليه نوع من الارتباك والحيرة ، ويجمع في القول ويتبين في قوله
الاضطراب بين دين خالط لحمه ودمه شطراً من حياته ، وبين عقل
نزع إلى الحرية في آخر أيامه ، ويشعر بثقل الموقف على نفسه
فيجتهد في تحويل الحديث ، وتغيير مجرى القول إلى حيث يسترد
كامل رأيه ، ومنتهى حريته — هذا عقله ، وأما قلبه فدينه في
رف من رفوفه ، لم يملاؤه ولم يخل منه ، لذلك حرت أن أسميه
مؤمناً أو كافراً ، ماشيته مرة على البحر فرآه جميلاً جليلاً ، ورأى
القمر يسطع عليه بنوره الساحر ، فصاح هذا موضع سجود ،
فصلى على الرمل ، ودعاني مرة إلى ملهى فكان فيه كمن لا يؤمن
بحساب ولا عقاب ، وهكذا تذبذبت حياته بين نزعة قديمة ،
ونزعة جديدة ، ودين نشأ عليه ، ولا دين مال حديثاً إليه ، حيناً
يتحرك دينه الذي في الرف وينتفش حتى يعم قلبه ، وحيناً
ينكمش وينكمش حتى لا يكاد يرى أو يحس

حننت إليه لما بيننا من حب قديم ، ولكن لست أدري
لم لم تتأكد بيننا الصداقة في هذه المرة كما تأكدت من قبل ،
أكان يعطفني عليه دينه وقد رق ؟ أم كان يحنني عليه مافيه من
ضعف — مظهره الحياء والحجل ، وقد قوى فلا حياء ولا
خجل ، أم كانت تؤلف بيننا وحدة فتعددت ، وأسلوب واحد
في الحياة فتفرقت بنا السبل ، لعله شيء من ذلك ، ولعله كل ذلك ،
ولعله شيء غير ذلك ، على كل حال تركته وبيننا ودّ دخله العقل
نخف ، وصداقة جال في نواحيها الفكر ففترت

لقد خليته ، وأنا أفكر في شأنه ، لقد عاش شيخاً وهو
شاب ، وعاش شاباً وهو شيخ — عصي هواه صغيراً وأطاعه
كبيراً ، فليته ولد كبيراً ثم عاد صغيراً ، وليت شعري هو في أي
حالیه أسعد ، أيوم فر من العالم إلى دينه ، أم يوم فر من دينه
إلى العالم ؟ — انه ليمثل في حياته العالم خير تمثيل ، موجة دين تتبعها
موجة الحاد ، وموجة روحانية تتلوها موجة مادية ، وهكذا
دواليك ، وما أدري أيقف صديقنا في تطوره عند هذا الحد ، أم
يعود سيرته الأولى ، أم يختط مسلكاً جديداً لا هو هذا ولا هو
ذاك ؟ الله أعلم ؟

أحمد أمين

إليه ، ويكتب إلي ، ثم عفى الزمان على الصداقة ففترت حرارتها ،
ونحمت جذوتها ، لا لسبب إلا أن الصداقة ككل حي إذا لم تغذ
دائماً بالمقابلة والمكاتبة أسرع إليها الذبول فالفناء .

ثم دارت الأيام دورتها ، وتعرفت في الاسكندرية بانسان
جديد ، فإذا هو صديق القديم ، هو في هذه المرة بدين بطين ،
مطهم الوجه ، ريان السواعد ؛ كنت في أيامي الأولى أقرأ في أرنبه
أنفه وصفاء جبهته آيات السداجة والاخلاص ، وكنت أرى
في وجهه وجلسته عزوفاً عن الدنيا ، وزهداً في الاستكثار منها ،
ورضى بميسورها ؛ وكنت ألح في فتور عينه حياء العذراء وخجل
المحدرات ؛ وكنت أرى في نبرات صوته وحركات جفونه
ونظرات عينه ديناً وورعاً ، فإذا كل ذلك قد استحال كما يستحيل
الماء إلى ثلج ، علمت أنه قد ورث من أبيه فأثرى ، وسمحت لي
الظروف بمخالطته فأدهشني ما رأيت من تغير وانقلاب — رأيت
وقد أطمأ عن وجهه قناع الحياء ، وخلع ربقة الحشمة ، يداخل
الناس ويمارزهم ، حسن الصحبة ، جميل العشرة ، يضرب بسهم
وافر في المفاكهة والتنادر ، جيد القصص ، حسن الحديث ،
لا يأنف من حديث فاجر إذا كانت فيه نكتة حلوة ، كثرت
أصحابه على اختلاف منازعهم وطبقاتهم ، وهو عند كل جماعة منهم
قطب الرحي ، يمزج بأرواحهم ويتصل بقلوبهم ، خير كل الخبرة
بأندية اللهو وما إليها ، يعرف جد المعرفة برامج السينما في كل
أسبوع ، وما يمثل من روايات في كل فصل من الفصول ،
وعنده الخبر اليقين عن كل مغن ومغنية ، وفنان وفنانة أتت من
مصر إلى الاسكندرية تغنى أو تمثل ، ذهب عنه خفر عينيه
وأصبح يتعشق الجمال ويتبعه ، ويحلق فيه ويشتهي ، حلت
المسائل المالية جزءاً كبيراً من عقله فهو كثير التفكير فيها ، له
ديون وعليه ديون ، وله قضايا وعليه قضايا ، وله دفاتر حساب دقيقة ،
وله آمال مالية واسعة

حادثته مرة ، وكان أشد ما أريد استطلاعه منه أن أعرف
حال دينه الذي كان يملك عليه قلبه وعقله ، والذي كان يغمر حياته
ويسيطر على كل خطوة من خطواته ، فإذا عقله حر شديد الحرية
في تفكيره ، قد تحرر من كل قيد ، يعجب بالمدنية الحديثة
ويستلهمها الرأي ويستوحىها النظر ، ويتخذ عماد منطقته